عراك فى معترك أى معترك

الأســـتاذ زكى طليمات

هذا التحدى بالسباب من جانب الأستاذ محمد متولى[1] نرده إلى صاحبه

نحن هنا ، على صفحات هذه المجلة للأدب الصرف وللعلم الخالص ، وقد نكون فى غيرها لما يريده الأستاذ الجامى الثقافة . لهذا نقول له إننا نحجم عن ذلك فى هذه الصحيفة ، لا إكراماً لشخصه ولا ترفقاً لحاله ، لأن من يقذف الناس بالحجارة من غير مبرر لا يرده ويحسن تأديبه إلا القذف بما هو دون الحجارة ، ولا لأى اعتبار آخر سوى وقار الموضوع الذى تبادلنا الحديث فيه ، وهو موضوع جدير بالرعاية فى معالجته على الوجه الصحيح .

كشف عن لون جديد من ألوان المعرفة ، وتقرير صنف حديث من أصناف التأليف المسرحى ، نقول إنه موضوع طريف ، أثار وسيثير حوله جدلاً طويلاً ستتبارى فيه الأقلام وتختبر المعارف وتسقط الأقنعة المزيفة عن الوجوه ، فيتضح — وليس للمرة الأولى — كيف أن النقد يجب أن يقوم قبل كل شىء على الخلق الرضى المتواضع لا على التعلم المزهو فحسب ، لأن التعلم وحده لا يحقق إنتاج الأديب الأصيل الذى يصدر أحكامه عن عقيدة مخلصة فى الحق والعدالة ، وكيف أن الذكاء وهو من صقل التعلم ، مجرداً عن الخلق العادل ، إنما يكون أداة للتضليل ومعولاً للشر ، ثم ينهض البرهان من جديد على أن بعض التعلم « وإن أذهب عن العاقل طيشه ، فإنه يزيد الأحمق طيشاً ، كما أن النهار يزيد كل ذى بصر نظراً ، ويزيد الخفاش سوء النظر »

نحن إذن أمام قضية خطيرة للعلم وللقراء ولهذه المجلة ، قضية يجب أن يقضى فيها بشرعة الحق وبقسطاس العلم ، والعلم أمانة ، وذهن القارئ أيضاً أمانة لدى الكاتب ، ولدى أستاذنا صاحب هذه المجلة

(١) الرسالة رقم ٣٨١ صفحة ١٠٦٩

لهذا ، سنمضى فى أثر الأستاذ متولى مهما شاء له أدبه

* * *

وتمهيداً للبراهين التى سنسوقها للتدليل على ما وصفنا به نقد الأستاذ متولى ، نعرض أولاً للباب الموضوع حتى يحسن القارئ تفهمه

الرمزية المستحدثة أوسع نطاقاً من رمزية « ريبو »

مثار الخلاف أننى دفعت رأى الأستاذ متولى فى أن الرمزية التى نحن بصددها فى مسرحية « مفرق الطريق » أوسع نطاقاً من الرمزية التى حددها الأستاذ متولى ، نقلاً عن « ريبو » وجده فى كتابه (الخيالة الخلاقة . باريس سنة ١٩٠٠)

الأستاذ متولى يقول بلسان (ريبو) : « إن الرمزية فى الفن تستخف بتمثيل العالم الخارجى تمثيلاً صادقاً فإذا الناس والأشياء ثم دون أن تنطبع بزمان أو مكان ، ولكنها تمضى وما تدرى أين حصلت ولامتى ، فلا هى تمت بصلة إلى أى بلد ، ولا هى تمثل عصراً بذاته » ، ولما كانت (مفرق الطريق) تعرض صوراً محلية تجرى حوادثها فى مصر ؛ وما دام بشر فارس قد أسمى بطل مسرحيته (هو) وأسمى بطلتها (سميره) ، إذن فالمسرحية لا تمت فى نظر الأستاذ متولى إلى الرمزية فى شىء ، وأنها محاولة مخنقة ، وأن مؤلفها لا يصح له أن يؤلف ، إلى غير ذلك من العبارات التى أصدرها بمراسيم تحمل اسمه الكبير !!!

سجل متولى هذا فى أول مقال له فرددنا عليه فى مقالنا السابق ١ — بأن (ريبو) واحد ممن كتبوا فى علم النفس ، وأن ما أدلى به هذا (الريبو) بصدد الرمزية فى الأدب ، قد فات أوانه بعد أن انبسطت للرمزية أطراف جديدة أخذ بها مؤلفون محدثون فى تأليف المسرحية والقصص والشعر ، وذكرنا أسماء لبعض هؤلاء المؤلفين ، وكلهم من المبرزين فى عالم الأدب الرفيع أمثال (بيراندللو) ، (جيرودو) ، (جانيون) ؛ وهم مؤلفو مسرحيات رمزية صميمة لم تتقيد بآراء (ريبو) من حيث الاستخفاف بتمثيل العالم الخارجى وغير ذلك ؛ بل هى مسرحيات تنطبع بزمان ومكان ، وشخوصها يحملون أسماء كسائر الناس ، وتجرى حوادثها فى مدن معروفة . وذلك أن الرمزية المستحدثة أصبح مدارها

الأول استكناه خفايا النفس وبواطن الأشياء ، أو بمعنى آخر « استنباط ما وراء الحس من المحسوسات الخ » ، كما أورده بشر فارس فى مقدمته لمسرحيته المذكورة

٢ — ولم نقف من هذه الأقوال عند مجرد الرد فحسب ، وإنما أضفنا إلى هذا النقص عند (ريبو) ذكر نقص آخر ، قرره العالم (أبيل راى Abel Rey) أستاذ تاريخ العلوم وفلسفتها بجامعة السربون . وذلك فى بحث له عن الاختراع بكتاب Traité de Psychologie لجورج دوماس (صفحة ١٤٤١ السطر ١٤ — ٢٠ الجزء الثانى طبعة باريس ١٩٢٤) هذا نصه :

La psychologie de Ribot à ce suiet nous semble encore trop dominée par la conception automatique et simpliste de l'atomisme mental, bien qu'il ait insisté — ce qui le rangait parmi les novateurs à l'époque — sur ce fait que les états associés ne sont pas simplement juxtaposés, mais qu'ils « se modifient par le fait même de leur connexion »

ومجمل ترجمته : « يلوح لنا أن علم النفس عند (ريبو) فى مسائل « المخيلة » والاختراع لا يزال تحت تأثير النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة »

٣ — وأيدنا هـذا النقص بذكر تقدم علم النفس فى هذه المسألة بعينها على أيدى الفيلسوفين (وليم جيمس) و (برجسون) !

(وقبل أن أنتقل من هذه النقطة أرجو القارىء أن يقف قليلاً أمام هذا النص الفرنسى ومجمل ترجمته فله قصة طريفة سنوردها بعد قليل !)

٤ — ولم نكتف بكل هذا ، وهو من صميم العلم الذى لا ترق إليه الشبهات ، بل رجعنا إلى (ريبو) نفسه فى كتابه المذكور (المخيلة الخلاقة) ووقفنا عنـد النص الذى اقتطعه الأستاذ متولى ليدعم دعواه فى الرمزية ، فوجدنا ، ويا للعجب ، أن (ريبو) لم يتحرج التحرج الذى أراده متولى ، إذ أنه ، أى (ريبو) لم يحتم التحتيم كله أن تكون الرمزية ممتنة فى الإبهام إذ يقول « إنه كثيراً souvent ما تفلت الرمزية — فى عهده طبعاً — من التحديد الزمانى والمكانى ، وإذ يقول إن الأسماء ، أسماء الأشخاص فى المسرحية يعبر عنها أحياناً quelquefois بهو أو هى ، أو هم !

٥ — ثم تساهلنا مع الأستاذ متولى فقلنا إنه على فرض أن (ريبو) إله فى علم النفس ، وأن آراءه فى الرمزية لم يشحب لونها ، وعلى فرض أن العلماء مثل Abel Rey لم تطمن فى صحة موقف (ريبو) فى كلامه عن « الاختراع » و « المخيلة » كما قدمنا ، على فرض كل هذا ، فإنه من الغريب أن يأتى متولى عام ١٩٤٠ فيفرض على كل كاتب فى الرمزية أن يخضع ما يكتبه فيها لآراء (ريبو) ، فيقول للدكتور بشر فارس إما أن تنشىء على آراء (ريبو) وإما فما تنشئه لا يمت إلى الرمزية بصلة ما ! ثم سألناه ، بعد أن قررنا له أن العلم يتقدم والنظريات تتطور : وما نفع مسايرة الأدب ـ وفيه الرمزية ـ للعلم فى تقدمه وفى مستحدثاته ؟

أين موضوعية النقد يا أستاذ ؟

بهذا المنطق الواضح والبرهان المستقيم دفعنا أقوال الأستاذ متولى ، وهى أقوال اتخذها أساساً لانتقاص مسرحية (مفرق الطريق) ، فلم يدفع ما أدلينا به بحجة علمية واحدة مع أن ما نحن بصدده فى هذا يؤلف جوهر الموضوع !

فهل قرأ متولى هذا فى مقالنا ولم يفهمه ، أو هو قرأه ووعاه ثم أسقطه من حسابه فى رده علينا خشية أن يبدو أمام القراء فى غيبوبة وتباطؤ فى التحصيل لا يصح أن يكون عليهما مزهو بإجازة الماجستير !!

لئن كان الأمر الأول فله العذر ولنا العزاء ، ولئن كان الأمر الثانى فيا خيبة الأمل فى نزاهة النقد وصدق النفس !!

الهارب المهزوم !!

بماذا طلع علينا متولى فى مقاله الأخير ؟!

١ — سبحات فى خيال ، ونطحات فى جدار ، وسباب ساقه إلى وإلى بشر فارس يعزبنى فيه ، كما يعزى ـ على ما أظن ـ بشر فارس ، أنه امتد فى غير حياء إلى المستشرق الكبير الأستاذ

(بركلمان)، الحجة فى تاريخ الأدب العربى، هجم متولى، الماجستير فى الفلسفة من الجامعة المصرية على هذا الإمام الكبير فنعته «بالغفلة» لأنه قرر فى تاريخه عن الأدب العربى الحديث عن مسرحية (مفرق الطريق): «نحن هنا عند استهلال تطور يستطيع أن يحدث تجديداً فى الحياة الأدبية أو قل يجلب ثروة إليها»

ما رأى أساتذة كلية الآداب فى هذا، وبماذا يعاقبون التلميذ محمد متولى؟

٢ — عمد إلى المغالطات الصريحة والادعاءات الجريئة، وإلى القارئ بعضاً منها:

(ا) ادعى أننا نسبنا — غفلة وجهلاً وإمعاناً فى تزييف الحقائق العلمية — ما قاله العالم (أبيل راى Abel Rey) خاصًّا بنقد (الخيلة) عند (ريبو) — ونص هذا القول سجلناه بالفرنسية مع ملخص ترجمته قبل هذا بسطور ورجونا القارئ أن يقف عنده — ادعى الأستاذ متولى أننا نسبنا هذا إلى (وليم جيمس) الفيلسوف المعاصر، ولا نعرف لهذه الدعوى وجوداً إلا فى مخيلة متولى المبتدعة، لأننا أوردنا نص ما قال Abel فى مقالنا السابق[1] مع إشارة صريحة إلى أنها واردة فى كتاب Traité de Psychologie لجورج دوماس، ولم نغفل تاريخ طبع الكتاب وأرقام الجزء والصفحة والسطر! وما على القارئ إلا أن يتفضل بالمراجعة ليحكم هل أنا المزيف أم الأستاذ متولى!

(ب) يدرس لا يدرس

قلنا فى مقالنا السابق إن كتاب جورج دوماس هذا يدرس اليوم فى جامعة السربون بباريس، ولم نضع شكلاً على كلمة (يدرس) باعتبار أن المعنى صريح لا يحتاج إلى ضبط لدى كل من له معرفة بدراسة الجامعات، وقد تمت بدراسة فى جامعة السربون لتاريخ الفن Histoire de l'art الأمر الذى يصح أن يعرفه الأستاذ متولى، ولكن مخيلة الأستاذ شاءت أن ترى فى كلمة (يدرس) بمعنى يقلب ويقرأ، معنى آخر تحدده كلمة (يُدرِّس) أى واجب على الطلبة الأخذ بكل ما جاء فيه.

(١) الرسالة رقم ٣٧٨ ص ١٥٢٠ العمود الأول ابتداً من السطر ١٤

كما متولى هذه الكبوة ليقول مزدهياً: إن زكى طليمات لا عهد له بالدراسة الجامعية وعليه فلا يجوز له أن يناقش خريجاً من جامعة

(ج) ولو ! !

أراد متولى أن يسجل علينا رذيلة التطاول والتهجم على رجال العلم، وأولهم فى نظره (ريبو)، لأنه عكازه ومنظاره فيما يكتب، فقال: إن (ريبو) هذا الذى لا يرضينا هو الذى عرف (جورج دوماس) فضله فاختاره ليكتب له مقدمة كتابه السابق الذكر. هذا فى حين أننا لم ننتقص قدر (ريبو) هذا ولم نتطاول عليه، وكل ما قلناه عنه أن آراءه فى الرمزية قد فات أوانها، ولم نكن فى هذا أقل براً من جورج دوماس نفسه الذى اصطفى (ريبو) لكتابة مقدمة كتابه، ثم سجل عليه فى نفس الكتاب ما أخذه عليه العالم A. Rey السابق الذكر!

(د) الفيلسوف المعاصر!

قرر الأستاذ متولى إرسالى إلى محكمة تحفظ كرامة العلم وتحاسب المستهترين بقدسيته لتعاقبهم، قرر هذا بتقدمه عريضة اتهام مفادها أننى وصفت (وليم جيمس) بالفيلسوف المعاصر، هذا فى حين (وليم) هذا توفى فى عام ١٩١٠، فهو بذلك غير معاصر!

وهنا أقول إنه يؤسفنى أن أصرح بأنه ما كان يدور بخلدى أن متولى يجهل كل المعنى التى تحت كلمة معاصر (Contemporain) وموعدنا العدد القادم ليحكم القراء فيمن يقدم إلى هذه المحكمة وإلى محاكم أخرى من نوعها، أنا أم الأستاذ محمد متولى؟

(لحديث بقية) زكى طليمات

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الرقم شارع الفلكي بالقاهرة
ومن المكتبات العربية المشهورة